أَثَرُ الفَرّاء في تأسيس البِناء البلاغيّ العربيّ

د. سُلَيمَان حُسَين العُمَيْرات
جامعة إزمير كاتب شلبي، تركيا
sulimanomirat@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2017/02/15م
تاريخ القـــبول: 2017/03/20م

مُلخَّص البحث:

إنَّ بعضَ مَن كتبُوا في تاريخ علم البلاغة ذهبُوا إلى أنَّه ترعرع في رحاب المتكلِّمين والفلاسفة، واشتطَّ بعضُهم حتّى زعَمَ أنّه ترجمةٌ لما جاء به عُلماء اليونان. وأمّا الذين ردُّوا نشأة علم البلاغة إلى أصحابِه الحقيقيّين من البلاغيّين المشهورين؛ أمثالِ: أبي هلال العسكريّ (ت395هـ/1005م) وعبد القاهر الجرجانيّ (ت471هـ/1078م) والزّمخشريّ (ت538هـ/1144م) فإنَّ بعضَهم غَفَلَ أو تغافَلَ عن أثر النُّحاة والمفسِّرين الأوائل الذين في كنفِهم نشأت بُذورُ هذا العلم؛ أمثالِ: سيبويه (ت180هـ/796م)، والفَرّاء (207هـ/822م) وغيرِهما من الأوائل الذين تضمَّنت كتبُهم إشاراتٍ بلاغيّةً نفيسة؛ كان لها أثرُها في نشوء علم البلاغة.

لذا دَرَسَ البحثُ جهودَ الفرّاء في تأسيس الدَّرسِ البلاغيِّ العربيّ في كتابِه «معاني القرآن»، من خلال دراسة مجموعةٍ من الظّواهر البلاغيّة التي عالجَها الفرّاءُ في الكتاب، وبيّنَ البحثُ منهجَ الفرّاء في دراسة الظَّواهر البلاغيّة، وبيَّنَ الفرقَ بين ما قالَه الفرّاءُ وما وصلَ إليه المتأخِّرون، وما زادوه من مُصطلحاتٍ وحُدودٍ وتعريفاتٍ وإيضاحاتٍ وتقسيمات، وحاوَلَ البحثُ أنْ يُبينَ موقعَ الفرّاء في علم البلاغة العربيّة.

وابتُدِئَ البحثُ بتمهيدٍ؛ يُعرِّفُ بالفرّاء، ويَذكرُ الباعثَ على البحث، ويُعرِّفُ بكُتُب معاني القرآن، وبمنهج الفرّاء في كتابِه «معاني القرآن»، ثُمَّ درَسَ فنونَ المجاز العقليّ، وإيجاز الحذف، والمشاكَلة، والالتفات، والكناية عندَ الفرّاء. ثُمّ انتهى بخاتمة.

الكلمات المفتاحيّة:

البلاغة – الفرّاء – القرآن الكريم – المجاز – المشاكلة – الحذف.

Ferrâ's contribution to the field of Arabic Rhetoric

Suliman Omirat
izmir Kâtip Çelebi University
sulimanomirat@gmail.com

Abstract:

The article focuses on the Arabic Language scholar Ferrâ's contribution to the field of Arabic Language and Rhetoric in his book Maâni'l-Kurânan explores his analysis of a set of rhetorical phenomena dealt with in this book. In addition, the difference between the approaches in the study of rhetorical phenomena of Ferra and that of the ones following him is put forward. Finally, the place of Ferra in the science of Arabic Language and Rhetoric is attempted to be determined.

The work consists of an introduction, main section of the article and conclusion. The main reason for leading the author to do a research in this area is explained in the introduction. The background knowledge of Ferra's life, the method followed in the works on the genre of Maâni'l-Kurân in general, and the one that of Ferra are explored in the introduction as well. The main section of the article focuses on Ferra's approach to such rhetorical arts such as maJâzu'l-aklî, hazf, mushâkala, iltifat and kinaya. The article comes to the end with a conclusion where a general assessment of the study is made.

Keywords:

Rhetoric- Ferra- Kur'an-l Karim

التَّمهيد:

تعريف بالفَرّاء (207-144هـ = 822-761م):

هو يحيى بن زياد الدَّيْلَمِيّ، أبو زَكَرِيّا، إمامُ الكُوفِيِّينَ بعدَ الكسائيّ (ت189هـ/805م)، وأعلَمُهم بالنَّحوِ واللُّغةِ وفُنونِ الأدَبِ. وأمّا بشأنِ لَقَبِه «الفَرّاء» فمعلومٌ أنّ الفَرّاءَ هو مَن يَخيطُ الفِراءَ أو يبيعُها؛ كما يتبادَرُ من صيغةِ النَّسَبِ؛ كبَزّازٍ وعَطّارٍ، ولم يَكُنِ الفَرّاءُ ولا أحدٌ آبائه في شيءٍ من هذا. وقيل: إنّه أُطْلِقَ عليه؛ لأنّه كان يَفْرِي الكلامَ؛ أي: يُحْسِنُ تقطيعَه وتفصيلَه[1]، أو لأنّه كان يُحْسِنُ نَظْمَ المسائلِ.

أَخَذَ الفَرّاءُ العلومَ والمعارفَ عن كُبراءِ العُلَماء في زمانِه؛ أمثالِ الكِسَائيِّ (ت189هـ/805م)، وسُفْيانِ بنِ عُيَيْنَةَ (ت198هـ/814م)، ويُقالُ: إنَّه أَخَذَ عن يونُسَ بنِ حَبيبٍ (ت182هـ/798م)، ويُحكى أنّه كانَ يُلازِمُ كتابَ سيبويهِ (ت180هـ/796م) وأنّه عندَما ماتَ الفرّاءُ وَجدُوا كتابَ سيبويهِ تحتَ رأسِه.

وللفَرّاء آثارٌ متنوِّعةٌ؛ منها: «مُشْكِل اللُّغة»، و«الجَمع والتَّثنية في القرآن»، و«المذكَّر والمؤنّث»، و«الفاخِر في الأمثال»، و«المقصور والممدود»، وأشهرُ كُتُبِه: «مَعاني القرآن» وهو الكتابُ الذي سنتناوله بالدِّراسة ههنا[2].

(1) انظر: الأنباريّ، أبو بكر (ت328هـ/940م)، الأضداد، ص159.

(2) انظر ترجمته في: ابن النّديم (ت438هـ/1047م)، الفِهْرِست، 1/91. وعبد الكريم السَّمْعانيّ (ت562هـ/1167م)، الأنساب، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، 10/156. وياقوت الحمويّ (ت626هـ/1229م)، معجم الأدباء، 8/131. وابن خلكان الإربليّ (ت681هـ/1282م)، وَفَيَاتُ الأعيان وأنباءُ أبناءِ الزمان، 6/176. وخير الدِّين الزِّرِكْليّ 8/145-146.

الباعث على البحث:

يُشتهَرُ الفرّاءُ بأنّه إمامُ النُّحاة الكوفيّين في عصرِه، ولا يُنْكَرُ فضلُه في اللُّغة والنَّحو والصَّرْف، ولكنَّ بعضَ الباحثين إذا أرادَ الكلامَ على نشأةِ علومِ البلاغةِ تراهُ يَذكُرُ أبا عُبَيْدَةَ (ت209هـ/824م) صاحبَ كتاب «مجاز القرآن»، ويَنسُبُ إليه الفَضْلَ، وإلى الجاحظِ (ت255هـ/869م) صاحب «البيان والتّبيين»، وإلى ابن المعتزِّ (ت296هـ/909م) صاحب كتاب «البديع»، وغير هؤلاء ممّن كان لهم الفضلُ في رسم الملامح الأولى لعلم البلاغة العربيّة؛ كابن قُتَيْبَةَ (ت276هـ/889م) صاحب «تأويل مُشكِل القرآن»، والمُبرِّد (ت286هـ/889م) صاحب «الكامل في اللُّغة والأدب»، وقُدامةَ بنِ جعفر (ت337هـ/948م) صاحب «نَقْد الشِّعر»، لكنّه يَغْفُلُ عن ذِكر الفَرّاء (ت207هـ/822م) صاحب «معاني القرآن»، وفضلِه السّابق في وَضْعِ اللَّبِنات الأولى في بناء المعرفة البلاغيّة والجماليّة عندَ العرب.

تعريف بكُتُب معاني القرآن:

اهتمَّ عددٌ من النَّحويِّين واللُّغويّين في القرون الثّلاثة الأولى بوضعِ كثيرٍ من الكُتُب تحت اسم «معاني القرآن»، ومنها: «معاني القرآن» للكِسائيّ (ت189هـ/805م)، و«معاني القرآن» للنَّضْر بن شُمَيْل (203هـ/819م)، و«معاني القرآن» لقُطْرُب محمّد بن المُستَنِير (ت206هـ/821م)، و«معاني القرآن» للأخفش الأوسط

(ت215هـ/830م)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزّجّاج (ت311هـ/923م)، و«معاني القرآن» لأبي جعفر النَّحَّاس (ت338هـ/950م)، وكانَ الفَرّاءُ – كما تلحظُ – سَبّاقًا في هذا المجال.

منهج الفرّاء في كتابه «معاني القرآن»:

يُشتَهرُ الفرّاء بأنّه نحْويٌّ، ولكنْ نستطيعُ القولَ: إنَّه ممَّن وضعُوا بُذُورَ علمِ البلاغة؛ فكتابُه «معاني القرآن» لم يَقْتَصِرْ على شرحِ الغريب كما فعَلَ أبو عبيدةَ (ت209هـ/824م) في كتابه المشهور «مجاز القرآن»، بل كان يشرحُ بعضَ الألفاظِ الغريبة شرحًا لُغويًّا، ويعتني بالتَّخريج النَّحويّ والإعرابيّ لبعضِ المواضِع المشكِلة في الآيات الكريمة، ويُعالجُ المشكلاتِ الصَّرفيّةَ، وأحيانًا يتعرَّضُ إلى أسباب النُّزول؛ قرينةً مُعينَةً على التّفسير، وكان يُولي القراءاتِ القرآنيّةَ اهتمامًا كبيرًا، ويُبيِّنُ أثرَ تعدُّدِ القراءاتِ في تعدُّد المعاني والتّفسيرات للعبارة الواحدة في القرآن الكريم، وهو يُرجِّحُ بين القراءات بحسَب موافقتِها المعنى القرآنيَّ وقواعدَ العربيّة.

وفي الحقيقة **يغلُبُ على كتابه هذا الطّابَعُ النَّحْويُّ** –وهذا مُتوقَّعٌ من إمامِ النَّحويِّين الكوفيّين في عصرِه– ولكنّه في الوقتِ نفسِه يشرحُ كثيرًا من المواضعِ التي تحتاجُ إلى تأويلٍ شرحًا بلاغيًّا، وإنْ لم يُسَمِّها بمصطلحاتِها التي اتَّفقَ عليها البلاغيُّون المتأخِّرون، وإنَّ أثرَ الفرّاء في تأسيس علوم البلاغةِ العربيّة يستحقُّ كتابًا مُطوَّلًا، وسوف يكتفي هذا البحثُ بإيرادِ نماذجَ معدودةٍ يهتدي بها مَن شاءَ أنْ يُفصِّلَ البحثَ مُستقبَلًا.

الموضوع:

أوّلاً: المَجاز العَقْليّ.

هو ضَرْبٌ من ضُرُوبِ الاتِّساعِ والتَّجَوُّز في اللِّسان العربيِّ؛ وهو إسنادُ المتكلِّمِ الفعلَ أو ما في معناهُ (كالمصدر والمشتقّات) إلى غيرِ ما هو له في اعتقادِه؛ لمُلابَسَةٍ بينَهما. كقولك: «سليمانُ أيّامُه سعيدةٌ» فقد أسندْتَ السّعادة إلى الأيّام، مع أنّ الأيّام ليست عاقلة، وليس لها قلبٌ أو شعورٌ، وإنّما الأيّام هي زمانُ السَّعادة وظَرْفُها، والمقصودُ: سليمانُ سعيدٌ في أيّامه. فالملابَسَة التي جوّزت إسناد السّعادة إلى الأيّام هي «الزّمانيّة» فالأيّام ظرفُ السّعادة. وكذلك إن قلتَ: «القَلَقُ ليلُه مستيقظٌ»، و«أتمنّى لك درسًا سعيدًا، وليلةً هانئةً...».

إذًا يكونُ **المجازُ العقليُّ** بإسنادِ شيءٍ إلى شيءٍ آخرَ إسنادًا غيرَ حقيقيٍّ؛ لأنَّ الإسنادَ نوعان:

- حقيقيٌّ؛ (رَبِحَ محمَّدٌ).
- وغيرُ حقيقيٍّ؛ (ربحَتْ تجارةُ مُحمَّدٍ).

فإنَّ نسبةَ الرِّبح إلى التِّجارة نسبةٌ غيرُ حقيقيّة، والعقلُ لا يقولُ بها؛ أي: هي نسبةٌ مجازيّةٌ؛ لأنَّ محمّدًا يَرْبَحُ، والتِّجارة لا تَرْبَحُ، والمقصودُ ربح محمّد بسبب تجارتِه.

ولهذا المجاز مصطلحاتٌ عدّةٌ[1]:

- يُسَمَّى مَجازًا عقليًّا؛ لأنّ التَّجوُّزَ في الإسناد بين المسنَد والمسنَد إليه حصَلَ من جهةِ العقلِ

(1) انظر: أحمد مطلوب، معجَم المصطلحات البلاغيّة وتطوّره، ص591، وص598، وص599.

والفكرِ لا من جهة اللُّغة، فالعقلُ هو الّذي جَوَّزَ هذا الإسنادَ المخالِفَ لحقائقِ اللُّغة وحَكَمَ بصِحّتِه.

- ويُسمَّى مجازًا إسناديًّا؛ لأنّ المجازَ فيه حصَلَ من جهة الإسناد (إسناد غير حقيقيّ)؛ مع علاقةٍ.
- ويُسمَّى المجاز في الإثبات: لحُصولِه في إثبات أحدِ الطَّرَفَين للآخر.
- ويُسمَّى مجازًا حُكميًّا؛ لأنَّ الكلمةَ فيه قد تكونُ متروكةً على ظاهرِها، وإنّما التَّجوُّزُ في حكم يجري على هذه الكلمة. ففي قوله تعالى في شأنِ فرعونَ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:4] هنا يوجدُ مجازٌ، لكنّه ليس في ذات اللّفظ «يُذَبِّحُ» فالكلمة مُستعمَلةٌ على حقيقتِها، ولكنَّ المجازَ في إعطائها حُكمًا ليس لها؛ هو إسنادُها إلى فاعلٍ غيرِ حقيقيٍّ (فرعون)؛ ففرعون لم يكنْ يذبحُ الأطفالَ بنفسِه، وإنّما كانَ يأمرُ جُنودَه بذلك، فيُطيعون أمرَه. والعلاقة بين (التّذبيح) و(فرعون) هي علاقةُ السّببيّة؛ لأنّ فرعونَ هو الآمِرُ بالتّذبيح، وهو السّببُ في حدوثِه. وأصلُ الكلام: أمَرَ فِرعونُ بتذبيحِ أبنائِهم واستحياء نسائهم.

ولا ننسى أنْ نُشيرَ إلى أنَّ **المجازَ العقليَّ باعتبار طرفَيه (المسنَد والمسنَد إليه) إلى أربعة أقسام:**

- الطّرفان حقيقيّان: (سالَ الوادي).
- الطّرفان مَجازِيّان: (أَحيا الأرضَ شبابُ الزّمان).
- المسنَد حقيقة والمسند إليه مجاز: ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: 16]
- المسنَد مجاز والمسند إليه حقيقة: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمّد: 4]

ففي قولِنا: (رَبِحَتْ تجارةُ محمّد) لا ننسى أنّ الّذي سوَّغَ إسنادَ (الرِّبح) إلى (التِّجارة) دون صاحبِها الحقيقيِّ (محمّد) إنّما هو علاقةٌ أو مُلابَسةٌ بينَ الفعل (ربح) والفاعل المَجازيّ (تجارة)، وهي العلاقة السّببيّة؛ فالتِّجارةُ سببُ الرِّبح. إذًا لا بُدَّ في المجازِ العقليِّ أو «المجاز الإسناديّ» من علاقةٍ أو مُلابَسةٍ بين الكلمتين، وقد ذكرَ البلاغيُّون في كُتُبِهم **علاقاتٍ مُتنوّعةً في المجاز العقليّ**؛ منها:

- **الإسنادُ إلى الزّمان:** كقولِك في وصفِ رجلٍ متعبِّدٍ: (نهارُ فلان صائمٌ، وليلُه قائمٌ) فالنّهارُ لا يصومُ، واللّيلُ لا يقومُ، والمقصودُ أنّ فلانًا صائمٌ في نهاره، وقائمٌ في ليله؛ فالّذي سوَّغَ إسنادَ الصِّيام إلى النَّهار، هو أنّ النّهارَ زمانُ الصِّيام، وكذلك في إسناد القيام إلى اللَّيل؛ لأنّ اللّيل زمان القيام، والإسناد الحقيقيّ قبل المجاز: (فلانٌ صائمٌ كلَّ النّهار، وقائمٌ كلّ اللّيل). وكقولِه تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزّمّل: 17] فيومُ القيامة ليس فاعلًا حقيقيًّا لفعلِ تشييب الولدان، ولكنَّ الفعلَ أُسنِدَ إلى (يوم القيامة)؛ لأنّه زمانُ شَيْبِ الولدان.

• **الإسنادُ إلى المكان:** كقولِه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ ﴾ [الأنعام: 6]؛ فالجَرَيانُ هو فِعلُ الماءِ، ولكنّه أُسنِدَ في الآية إلى الأنهار؛ لأنّ الأنهارَ مكانُ جري الماء. ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرّعد: 17] أُسنِدَ (السَّيَلانُ) إلى (الأودية)، مع أنّه للماء الذي فيها، والملابسةُ هي: المكانيّةُ. ولعلّ الغرض البيانيَّ الإشعارُ بأنّ النّاظرَ إلى الأوديّة المغمورة بماء السُّيول، يُخَيَّلُ إليه أنّ الأوديةَ تَسيلُ أيضًا مع المياه التي تسيل فيها؛ لبيان عظمة ذلك السَّيَلان.

• **الإسنادُ إلى السَّبب:** كقولِه تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴾ [غافر: 36]؛ وكذلك قولُه تعالى: ﴿ فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا ﴾ [القصص: 38] فإنّ إيقادَ النّار على الطّين، وبناء الصّرح من شأنِ العَمَلةِ لا من شأن الوزير هامان، ولكنْ أُسنِدَ الإيقادُ والبِناءُ إلى هامانَ وزيرِ فرعونَ، دون الفاعل الحقيقيّ «العَمَلة»؛ لأنَّ هامانَ هو الآمِرُ بالإيقاد والبِناء وهو السَّببُ في ذلك. والقرينةُ الدّالةُ على وجودِ المجاز العقليّ هنا قرينةٌ فكريّة هي استحالةُ أنْ يقومَ الوزيرُ بنفسِه ببناء صرحٍ عظيم، ومُخالَفة العادات التي جرَت بأنّ العَمَلة هم الذي يُباشرون أعمال البناء لا الملوك والوزراء.

• **إسنادُ ما بُني للفاعل إلى المفعول:** كقولِه سبحانَه في شأنِ مَن يُؤتَى كتابَه بيمينِه يومَ القيامة: ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقّة: 21] أي: مَرْضِيَّةٍ. جاء في الآية وصْفُ المؤمنِ في الجنّة بأنّ عِيشتَهُ راضيةٌ. والأصلُ أنْ يكونَ هو الرّاضي بها، ونقولُ: فهو في عيشةٍ (مَرْضِيَّةٍ). ولكنْ أُسنِدَ الرِّضا إلى العيشة؛ فهذا مجازٌ عقليٌّ علاقتُه المفعوليّة. ولعلَّ الغرضَ البيانيّ في هذا المجازِ هو «الإشعارُ بمصاحَبة الرِّضا لكلِّ أجزاء عيشةِ المؤمن في الجنّة، فلا يُوجَدُ عُنْصرٌ منها، ولا أجزاءٌ زَمَنيّةٌ مرافِقَةٌ لها تخلُو من الرّضا، وهذا المعنى لا تؤدّيه عبارة: فهو راضٍ عن عيشته، وذلك لأنّ الإنسان قد يرضى عن عيشته ولو دخلَت ضِمْنَها مُنغِّصاتٌ؛ إذْ هو ينظر إلى عيشته باعتبارِ الأغلَبِ من أحوالها، بخلاف العيشة نفسِها التي تمرُّ أجزاءً مع توالي الأزمان، إذْ كُلُّ جزء منها مُنْفَكٌّ عن سابقه وعن لاحقه، فإسناد الرِّضا إليها يدلُّ على أنَّ كُلَّ أجزائها مغمورٌ بالرضا»[1]. ومثلُه قولُه سبحانَه: ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطّارق: 6] أي مدفوق.

• **إسنادُ ما بُنيَ للمفعول إلى الفاعل:** كقولِه سبحانَه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴾[مريم: 61] أي: آتٍ، لا مَأْتيّ. واستعمالُ اسم المفعول في موضعِ اسم الفاعل مجازٌ عقليٌّ علاقتُه الفاعليّةُ. وكذلك قولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء: 45] أي: حِجابًا ساترًا.

(1) انظر: عبد الرّحمن حَبَنَّكَة الميدانيّ، البلاغة العربيّة (أسسها، وعلومها، وفنونها)، 2/300.

• **الإسناد إلى المصدر:** كقولِ الشّاعر العبّاسيّ أبي فِراس الحَمْدانيّ: [البحر الطّويل]

سَيَذْكُرُني قَوْمِي إِذَا جَدَّ جِدُّهُمُ

وفي اللَّيلةِ الظَّلْماءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ

أُسنِدَ الفعلُ (جَدَّ) الّذي هو فِعلُ الإنسانِ الجادِّ إلى المصدر (الجِدّ)، وأصلُ الكلامِ: إذا جَدَّ الجادُّ جِدًّا.

وتُوجَز قرينةُ المجاز العقليّ بما يأتي:

1. **لفظيّة:** بنى صالحٌ بيتَه مُستأجِرًا أَمْهَرَ البَنَّائين.
2. **غير لفظيّة:** من دليل العقل، أو دليل العادة، أو دليل الحال.

(أ) دليل العقل: (مَحبَّتُك جاءت بي إليك).

(ب) دليلُ العادة: (طبخ صاحبُ الوليمة لضيوفِه الكثيرين طعامًا لذيذًا).

(جـ) دليل الحال: إذا تكلَّمتَ عن رجُلٍ أُمِّي اسمه زيد؛ بقولِك: (كتبَ زيدٌ رسالةً إلى وَلَدِه المسافِر).

لعلّنا توسَّعْنا قليلًا في ذِكْر المجاز العقليّ؛ ولكنَّ هذا النَّوعَ البلاغيَّ ممّا يحتاجُ إلى الإيضاحِ عادةً، فقد أوردْنا مُوجَزًا يسيرًا عن مبحث المجاز العقليّ كما استوى في كُتُبِ البلاغيّين المتأخِّرين؛ لنعرفَ إلى أين وصلَ البلاغيُّون في دراسةِ هذا المبحث، من حيثُ تعريفُه، ومُصطلحاتُه، وأنواعُ مُلابساتِه، وأنواعُه باعتبار طرفَيه، وقرائنه. ولنقيسَ ذلك بمعالجةِ الفرّاءُ له سابقًا؛ علمًا أنّ المجازَ العقليَّ كثيرُ الوُرودِ في القرآن الكريم، ممّا بَعَثَ البلاغيّين على الاهتمام به.

وقد أَولاه إمامُ البلاغيّين عبد القاهر الجُرْجانيّ (ت471هـ/1078م) عنايةً كبيرةً في كتابَيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، وفَصَلَه عن المجاز اللُّغويِّ، وقال في تعريفِه: «وحَدُّه: أنّ كُلَّ جملةٍ أَخرجْتَ الحكمَ المُفادَ بها عن موضعِه من العقل لضَرْبٍ من التّأَوُّلِ، فهي مجازٌ»[1]. وكذلك فعَلَ أبو يعقوب السَّكّاكيُّ (ت626هـ/1229م) إذْ أورَدَ المجازَ العقليَّ في علم البيان وفصَّل شرْحَه في كتابِه مفتاح العلوم[2]، وكذلك الخطيبُ الدِّمَشقيُّ القَزوينيُّ (ت739هـ/1338م) الذي أخرجَه من البيان وسَلَكَه في مباحث علم المعاني في كتابَيه تلخيص المفتاح[3]، وشرْحِه المُسمّى الإيضاح[4]، وتابَعَهُ في ذلك شُرّاحُ كتابه تلخيص المفتاح؛ كبهاء الدِّين السُّبْكيّ (ت763هـ/1362م) في كتابِه عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح[5]، وسعد الدِّين التَّفتازانيُّ (ت793هـ/1390م) في كتابِه المطوَّل[6]، ونُشيرُ هنا إلى عناية الشّيخ العلّامة عبد الرّحمن حَبَنّكة الميدانيّ الدِّمشقيّ (ت2004م) بهذا النّوع البلاغيّ وبغيرِه من جهةِ الأغراضِ البيانيّة الجماليّة التي أفادَ فيها من كُتُب البلاغة والتّفسير ومن ذوقِه السَّليم.

وعندَما نقرأُ مبحثَ المجاز العقليّ في مُصنَّفات البلاغة المختلفة نرى معظمَ البلاغيّين يردُّون

(1) انظر: الجرجانيّ، عبد القاهر (ت471هـ/1078م)، أسرار البلاغة، ص385.

(2) انظر: السّكّاكيّ، أبو يعقوب (ت626هـ/1229م)، مفتاح العلوم، ص393.

(3) انظر: الخطيب القزوينيّ (ت739هـ/1338م)، تلخيص المفتاح، ص21.

(4) انظر: الخطيب القزوينيّ (ت739هـ/1338م)، الإيضاح في علوم البلاغة، ط3، 1/80.

(5) انظر: السُّبْكيّ، بهاء الدّين (ت763هـ/1362م)، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، 1/140.

(6) انظر: التَّفتازانيّ، سعد الدّين (ت793هـ/1390م)، المطوّل، ص197.

الفضلَ في دراسة المجازِ العقليّ إلى عبدِ القاهر، فهذا يحيى بن حمزة العلويّ (ت745هـ/1344م) يقولُ في كتابه الطِّراز لأسرارِ البلاغةِ وعلوم حقائق الإعجاز: «اعلمْ أنّ ما ذكرْناه مِن المجازِ الإسناديِّ العقليِّ هو الذي قرَّره الشّيخُ النِّحرير عبدُ القاهرِ الجرجانيّ، واستخرجَه بفكرتِه الصّافية، وتابَعَه على ذلك الجهابذةُ من أهل هذه الصّناعة، كالزّمخشريّ، وابن الخطيب الرّازيّ، وغيرهما»[1]، وتابَعه د. طه حسين (ت1393هـ/1973م) بقوله: «أمّا المجازُ العقليُّ فهو من ابتكارِ عبد القاهر»[2].

ونحنُ لا نُنكرُ أنَّ دراسةَ عبد القاهر للمجازِ العقليّ كانت دراسةً عميقةً وتفصيليّةً استفادَ منها المفسِّرون والبلاغيّون فيما بعدُ، ولكن ليس من العدلِ أنْ نقولَ: إنَّ عبدَ القاهر هو الذي اكتشفَ المجازَ العقليّ، أو ابتكرَه، وفي الوقتِ نفسِه نَغْفُل عن أثرِ الفرّاء في التّأسيس لهذا المبحث البلاغيّ، فإنّ مَن يقرأُ كتاب معاني القرآن كاملًا يجدْ فيه مادّةً غنيّةً تتّصلُ بمبحث المجازِ العقليِّ، وسنوردُ أمثلةً على ذلك:

ففي بيان قولِه تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ [البقرة: 16] يقولُ الفرّاء: «رُبَّما قالَ القائلُ: كيفَ تربحُ التِّجارةُ وإنّما يَربحُ الرَّجلُ التّاجرُ؟ وذلك مِن كلام العربِ: رَبِحَ بَيْعُك وخَسِرَ بيعُك، فحَسُنَ القولُ بذلك؛ لأنّ الرِّبْحَ والخُسْرانَ إنّما يكونان في التِّجارة، فعُلِمَ مَعناه. ومِثلُه مِن كلامِ العربِ: هذا ليلٌ نائمٌ. ومثلُه من كتاب الله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ [محمّد: 21]، وإنما العزيمةُ للرّجال»[3]. **فهل كلامُ الفرّاء إلّا تحليلٌ واضحٌ لأسلوبِ المجازِ العقليّ، مع أنّ الفرّاء لم يُسَمِّه بالمصطلحات التي اصطلح عليها البلاغيُّون الذين أتَوا بعده بقُرونٍ.**

وفي قولِه جلَّ وعلا في حكايةِ نوحٍ عليه السّلام وابنِه: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ [هود: 43] أي: لا معصوم، لأنّ المرحومَ معصوم. وقد بَيَّنَ الفرّاءُ المجازَ العقليَّ في الآية الكريمة؛ بقولِه: «لو جعلتَ العاصِمَ في تأويلِ معصوم؛ كأنّك قلتَ: لا معصومَ اليومَ مِن أمرِ الله...، ولا تُنْكِرَنَّ أنْ يخرجَ المفعولُ على فاعل، ألا ترى قولَه ﴿مِن مَّآءٖ دَافِقٖ﴾ [الطّارق: 6] فمعناه والله أعلم: مدفوق. وقولَه ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾ [الحاقّة: 21] معناها مَرْضِيَّة...، تستدلُّ على ذلك أنّك تقولُ: (رَضِيتُ هذه المعيشةَ) ولا تقولُ: (رَضِيَتْ)، و(دُفِق الماء) ولا تقولُ: (دَفَق)»[4].

وفي قولِه تعالى: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: 33] قال الفرّاءُ: «المكرُ ليس للَّيلِ ولا للنَّهارِ، إنّما المعنى: بَلْ مكرُكم باللّيل والنّهار. وقد يَجوز أنْ نُضيفَ الفعلَ إلى اللَّيل والنّهار، ويكونا كالفاعلَين؛ لأنّ العربَ تقولُ: نهارُك صائمٌ، وليلُك نائمٌ، ثُمّ تضيفُ الفعلَ إلى اللَّيلِ والنَّهارِ، وهو في المعنى للآدميّينَ، كما تقولُ: نام لَيْلُكَ،

(1) انظر: العَلَويّ، يحيى بن حمزة (ت745هـ-1344م)، الطِّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، 3/143.

(2) انظر: حسين، طه، مقالتَه: (البيان العربيّ من الجاحظ إلى عبد القاهر) في مقدّمة كتاب نقد النّثر لقدامة بن جعفر، ص29.

(3) انظر: الفراء (ت207هـ-822م)، مَعاني القرآن، 1/14.

(4) انظر: المرجع نفسه، 2/16.

وعَـزَم الأمرُ، إنما عَزَمه القـومُ. فهذا ممّا يُعرَفُ معناه، فتَتَّسِعُ بِهِ العربُ»[1].

انظرْ كيف كان الفرّاءُ وعلماءُ زمانِه ينظرون إلى المجازِ العقليِّ، يقولون: «هو ممّا يُعرَفُ معناه، فتتَّسِعُ به العـربُ»؛ وهـذا طبيعيٌّ؛ لأنَّ النّاسَ في زمانِه؛ ليسوا بعيدي عهدٍ بأشعارِ الفحول الجاهليّين، وبلاغةِ المصطفى ﷺ، ومـا زالَ لسانُهم مُستقيمًا فصيحًا بليغًا، ولَمّا تَفْشُ العُجْمَةُ على ألسنة القوم في زمانِه كما حصَلَ في الأزمنةِ اللّاحقةِ، وكانَ النّاس عالِمينَ بأساليبِ العربِ في تصريفِ كلامِها؛ لذلك لم يَحتجِ الفرّاءُ وصحبُه إلى الإسهابِ أو التَّطويلِ في شرح المجاز وغيره من المسائل البلاغيّة؛ فلم يضعوا لها الحدودَ والتَّعريفاتِ والأنواعَ والتَّقسيماتِ والقيودَ والاستثناءاتِ؛ كما فعلَ المتأخِّرون.

ومن هنا قُلنا: إنّ الفرّاءَ ممّن وضعُوا بُذورَ علومِ البلاغة، وعبَّدُوا الطّريقَ أمامَ مَنْ سيأتي بعدَهم من مشاهيرِ علم البلاغة؛ كالجرجانيّ والزّمخشريّ والسّكّاكيّ وغيرهم.

ولكنْ لا ينبغي أنْ ننسى أثرَ سيبويهِ أيضًا في تأسيس البناء البلاغيّ العربيّ، وهذه المسألةُ تستحقُّ بحثاً مُستقلا، فالحقُّ أنّ سيبويهِ (ت180هـ/796م) إمامَ النَّحوِ قد أطلقَ في كتابِه بعضَ الإشارات البلاغيّة التي أضاءت الدَّربَ لِلّاحقين، ومن ذلك كلامُه في المجاز العقليّ؛ إذ يقولُ: «ومثلُ ما أُجْرِيَ مُجرى هذا في سَعَةِ الكلام والاستخفافِ قولُه عزّ وجلّ: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ

(1) انظر: المرجع نفسه، 2/263.

وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: 33] فاللّيلُ والنّهارُ لا يَمكُران، ولكنّ المكرَ فيهما»[2].

ثانياً: المُشاكَلة

المُشاكَلة: أنْ تَذكُرَ الشّيءَ بلفظِ غيره؛ لوقوعِه في صُحبتِه[3]، هكذا عرَّفه السَّكّاكيُّ (ت626هـ/1229م) في مفتاح العلوم، ومثَّلَ له بـ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 194]، وقوله: ﴿مَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 54]، وقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: 116]...»[4]. وهكذا تابعَه البلاغيُّون كصاحبِ تلخيصِ المفتاح ومَن شَرَحُوه، وتابَعَهُ أصحابُ البديعيّات؛ كابن حِجّة الحمويّ (ت837هـ/1433م) في شرحه لبديعيّته المسمّى خزانة الأدب وغاية الأرَب[5]، وابن معصوم المدنيّ (ت1119هـ/1707م) في شرحه لبديعيّته أنوار الرّبيع في أنواع البديع، ويُعَدُّ هذا الكتابُ الضَّخمُ من أكبر ما صُنِّفَ في علم البديع[6].

وإنّ الزَّمخشريَّ (ت538ه/1144م) سبَقَ هؤلاء، وعالَجَ كثيرًا من مواضعِ المشاكلة في القرآن الكريم في تفسيره الكشّاف، ومن ذلك أنَّه عندَما فسَّرَ قولَه سبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: 142] قالَ: «يُخَادِعُونَ

(2) انظر: سيبويه (ت180هـ-796م)، الكتاب، 1/176.
(3) انظر: مطلوب، أحمد، معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها، ص621.
(4) انظر: السّكّاكيّ، أبو يعقوب، مفتاح العلوم، ص424.
(5) انظر: الحمويّ، ابن حِجّة (ت837هـ/1433م)، خزانة الأدب وغاية الأرب، 2/252.
(6) انظر: المدنيّ، ابن معصوم (ت1120هـ-1707م)، أنوار الرّبيع في أنواع البديع، 5/284.

اللَّه: يفعلون ما يفعل المُخادِعُ؛ من إظهار الإيمانِ، وإبطان الكُفْرِ، وَهُوَ خَادِعُهُمْ: وهو فاعِلٌ بهم ما يفعلُ الغالِبُ في الخِداع؛ حيثُ تَرَكَهم معصومي الدِّماءِ والأموالِ في الدُّنيا، وأَعَدَّ لهم الدَّرْكَ الأسفلَ من النّارِ في الآخرة»[1].

ولكنَّ الفَرّاءَ سَبَقَ هؤلاءِ جميعًا بمئاتِ السِّنين، وكانَ أوَّلَ مَن أماطَ اللِّثامَ عن هذا الأسلوبِ اللُّغويِّ الذي يَخفى إلّا على ذوي البَصَرِ بأساليب العربِ وبلاغتِها وآدابها، فتراهُ عالجَ كثيرًا من مواضِعِ المشاكلة في القرآن الكريم، وإنْ لم يُسمِّها باسم المشاكلة الذي تعارَفَ عليه البلاغيُّون فيما بعدُ، وإليك نماذجَ من ذلك:

- ففي قولِه سبحانَه: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 193] يقولُ الفَرّاء: «فإنْ قالَ قائلٌ: أرأيتَ قولَه: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أَعُدْوانٌ هو، وقد أباحَهُ اللَّه لهم؟ قُلْنا: ليسَ بعُدوانٍ في المعنى، إنما هو لفظٌ على مِثْلِ ما سَبَقَ قبلَه. ألا ترى أنّه قالَ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 194] فالعُدوانُ من المُشركينَ في اللَّفظِ ظلمٌ في المعنى والعُدوان الذي أباحَه اللّه وأمَرَ به المسلمينَ إنّما هو قِصاصٌ. فلا يكونُ القِصاصُ ظُلْمًا، وإنْ كانَ لفظُه واحدًا. ومِثْلُه قولُ اللَّه تباركَ وتعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشُّورى: 40] وليسَت من اللَّه على مثلِ معناها من المُسيءِ؛ لأنّها جزاءٌ»[2].

وفي بيانِ قولِه تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: 54] يقولُ الفَرّاء: «نَزَلَ هذا في شأنِ عيسى؛ إذْ أَرادُوا قَتْلَه، فدَخَلَ بيتًا فيه كَوَّةٌ، وقد أَيَّدَه اللَّه تباركَ وتعالى بجبريلَ، فرَفَعَه إلى السّماءِ مِنَ الكَوَّةِ، ودخلَ عليه رَجلٌ منهم ليقتلَه، فألقى اللَّه على ذلك الرَّجلُ شَبَهَ عيسَى بنِ مريمَ. فلمّا دخلَ البيتَ فلم يجدْ فيه عيسى خرجَ إليهم، وهو يقولُ: ما في البيتِ أحدٌ، فقتلُوه، وهم يرَون أنّه عيسى. فذلك قولُه: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ **والمَكْرُ من اللهِ استدراجٌ، لا على مَكْرِ المَخلوقين**»[3].

وفي تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التّوبة: 67] قالَ الفَرّاء: «يريدُ: تَركوه فتركَهم»[4]، وفي تفسيرِ: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التّوبة:79] يقولُ: «وليسَ السُّخْريُّ من اللّه كمعناهُ من العباد، وكذلك قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: 15] ليسَ ذلك من اللّه كمعناهُ من العِباد»[5].

وفي قولِه تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: 138] قالَ الزَّمخشريُّ (ت538هـ/1144م) في تفسيرِها: «والمعنى: تطهيرَ اللَّه، لأنّ الإيمانَ يُطَهِّرُ النُّفوسَ. والأصلُ فيه أنّ النّصارى كانُوا يَغْمِسون أولادَهم في ماءٍ أصفرَ يُسمُّونه المَعْمُودِيَّةَ، ويقولون: هو تطهيرٌ لهم، وإذا فَعَلَ الواحدُ منهم بولدِه ذلك قالَ: الآنَ صارَ نَصْرانيًّا حَقًّا، فأُمِرَ المسلمون بأنْ

(1) انظر: الزَّمَخْشَريّ (ت538هـ/1144م)، الكَشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، 2/166.

(2) انظر: الفرّاء، معاني القرآن، 117-1/116.

(3) انظر: المرجع نفسه، 1/218.

(4) انظر: المرجع نفسه، 1/64.

(5) انظر: المرجع نفسه، 2/384.

يقولوا لهم: قولوا آمَنّا باللّه، وصَبَغَنا اللّه بالإيمان صِبْغَةً لا مثلَ صبغتنا، وطَهَّرَنا به تطهيرًا لا مثلَ تطهيرنا. أو يقول المسلمون: صَبَغَنا اللّه بالإيمان صبغتَه ولم نصبغْ صبغتكم. وإنما جيء بلفظ الصِّبغة على طريقة المشاكلة»[1].

فإنَّ الصِّبْغَ ليس بمذكورٍ في كلام اللّه، ولا في كلام النَّصارى، لكنْ لمّا كانَ غَمْسُهم أولادَهم في الماءِ الأصفرِ يستحقُّ أنْ يُسمَّى صِبْغًا، وإنْ لم يتكلّموا بذلك حين الغَمْس، وكانَتِ الآيةُ نازلةً في سياق ذلك الفعلِ؛ كانَ لفظُ «الصِّبغ» كأنّه مذكورٌ، إذ إنّ المسلمين أُمِروا أنْ يقولوا: صَبَغَنا اللّه تعالى بالإيمان صِبْغَةً، ولم نَصْبِغْ صِبْغَتَكم.

وقبل ثلاثة قرونٍ ونَيِّفٍ قال الفَرّاءُ: «وإنّما قيل: (صِبْغَةَ اللّهِ)؛ لأنّ بعضَ النَّصارى كانُوا إذا وُلِد المولودُ جعلُوه في ماءٍ لهم يجعلون ذلك تطهيرًا له كالختانة»[2].

وإذا تأمَّلْنا الآياتِ القرآنيّةَ الكريمةَ التي فيها أسلوبُ المشاكلةِ وتعقَّبْناها في التَّفاسير المتنوِّعةِ وفي كُتُب البلاغة وجدْنا أنّهم جميعًا أفادوا من جهود الفرّاء في تجلية أسلوب المشاكلة وتوضيحه في القرآن الكريم، ولكنَّ الفارقَ الوحيدَ بينَهم وبينَ الفرّاء هو –كما رأينا في كلام الزَّمخشريّ قبل قليل – أنَّهم في نهاية كلامِهم يذكرون المصطلح (المشاكلة)، وأمّا الفَرّاء فيشرحُ المشاكلة بوضوحٍ دون ذِكْرِ المصطلح الذي اتَّفقوا عليه لاحقًا.

ومن خلال قراءتنا في كتاب معاني القرآن نرى أنّ الفَرّاء لم يَسبقْ البلاغيّين بتوضيح أسلوب المشاكلة في القرآن الكريم فحسْب، بل هو الذي هَيَّأ لهم مصطلح (المشاكَلة)؛ ومن ذلك قولُه في تفسير: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 193]: «ليسَ بعُدوانٍ في المعنى، إنّما هو لفظٌ على مِثْلِ ما سَبَقَ قبلَه»، نظنُّ أنَّ هذا الشَّرحَ هو البوّابةُ التي نَفَذَ منها البلاغيُّون إلى وضعِ حدِّ المشاكلة الذي تعارفوه بعدُ، وفي التَّعريف يقول: (لفظٌ على مِثْلِ ما سَبَقَ قبلَه) أليسَتْ هذه المماثلةُ الّتي أشارَ إليها الفرّاءُ بمعنى المشاكلة؟

ثالثاً: إيجاز الحذف.

الحذف من أهمِّ الأساليبِ اللُّغويّة في لسان العرب، ومن أكثرها خفاءً وخَطَرًا، وهو أحوجُها إلى المهارةِ في فَهْمِ الكلام وملاحظةِ ما فيه من قرائنَ لفظيّةٍ أو حاليّةٍ أو عقليّةٍ تدلُّ على المحذوف، سواء كان المحذوفُ حرفَ هجاءٍ أم حرفَ معنًى أم اسمًا أم فِعْلًا أم جملةً، ويحتاجُ الحذفُ أيضًا إلى براعةٍ في ربطِ الكلامِ بسياقِه وسباقِه، فضلًا عن ربطِه بمرماه الذي قصدَه المتكلِّمُ؛ لكي يتمكَّنَ المتلقِّي من تحديد موضعِ الحذف، ثمّ بيانِ حُكمِه في النَّحو، ثُمَّ تقديره تقديرًا يُناسبُ المعنى (البلاغة) والمبنى (النَّحو)، ثُمّ بيان الحكمة البلاغيّة والجَماليّة من حذفِه.

وأساليبُ الحذف تتفاوتُ فيما بينَها من حيثُ الظُّهورُ والخفاءُ، فبعضُ الحذوفِ تكونُ قد جرت بها العاداتُ حتّى ألِفَها النّاسُ، وهذه يستطيعُ التَّنبُّهَ لها مَن له أدنى نظَرٍ في الكلام العربيّ. ولكنَّ بعضَ الحذوف يكتنفُها خفاءٌ ولَبسٌ شديدٌ لا يتنبَّهُ له ويحيطُ به إلّا ذو فقهٍ بلسانِ العربِ ونظامِه اللُّغويِّ المتكاملِ صرفًا ونحوًا وبلاغةً.

(1) انظر: الزَّمخشريّ، الكشّاف، 1/335.
(2) انظر: المرجع نفسه، 1/83.

وقد امتازَ الفَرّاءُ بالتَّنبُّه إلى مواضعِ الحذوف في البيان القرآنيّ، ولم يكتفِ بذلك، بل تميَّز أيضًا بتقدير المحذوفِ في كلِّ موضعٍ، وتعدّاه أحيانًا إلى بيان الحكمة من هذا الحذف في بعضِ المواضع، وإشاراتُه هذه كانت نورًا لِلُّغويّين والنَّحويّين والبلاغيّين مِن بعدِه.

ولا ريبَ في أنّ أسلوبَ الحذفِ يتَّصِلُ بكلِّ علمٍ وبابٍ وفنٍّ ومبحثٍ وصنعةٍ من علوم البلاغةِ العربيّة، بيدَ أنّ البلاغيِّين آثَروا أنْ يُخصِّصوا له كلامًا مستقلًّا في علم المعاني، في باب الإيجاز والإطناب والمساواة، عندَما تكلّموا على الإيجاز بالحذف، وقسّموه إلى: إيجاز الحرف، أو الاسم المضاف، أو المضاف إليه، أو الاسم الموصوف، أو الصِّفة، أو المُسنَد، أو المُسند إليه، أو مُتعلَّق، أو فعل الشّرط، أو جوابه، أو جُملة، أو أكثر من جملة. على أنّ غيرَ قليلٍ من الآياتِ القرآنيةِ التي يذكرُها البلاغيُّون في هذا الباب قد سبقَ للفرّاء أنْ أوضحَها، وخاصّةً المواضعَ المشكِلةَ على الفَهْم.

ومن ذلك أنّ القزوينيَّ (ت739هـ/1338م) في أثناء كلامه على الإيجازِ بالحذف في كتابه تلخيص المفتاح؛ مَثَّلَ لحذفِ جوابِ الشَّرطِ بقولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [يس: 45-46]، وأوضَحَ الحذفَ بقولِه: «أي: أعرَضُوا؛ بدليلِ ما بعدَهُ، أو للدّلالة على أنّه شيءٌ لا يحيطُ به الوصفُ، أو لتذهبَ نفسُ السّامعِ كلَّ مذهبٍ مُمكنٍ»[1].

والفرّاء قبلَ خمسةِ قرونٍ علَّقَ على هذه الآيةِ بقولِه: «وقولُه: ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ جوابٌ للآيةِ، وجوابٌ لقولِه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ﴾؛ فلمّا أنْ كانُوا مُعْرِضينَ عن كُلّ آيةٍ كفى جوابُ واحدةٍ من ثنتين؛ لأنّ المعنى: وإذا قيل لهم: اتَّقوا أَعْرَضوا، وإذا أتتهم آيةٌ أَعْرَضوا»[2].

بعدَ هذا يُمكنُك أن تصنعَ مُقايَسَةً بين تعليقَي الفَرّاء والقزوينيّ؛ فهي تُوضِحُ لكَ الفرقَ في زاويةِ النَّظَرِ بينَ الفرّاء والبلاغيِّين المتأخِّرين؛ وإنّ مَن يقرأُ كتابَ معاني القرآن للفرّاء، ويُحلِّلُ تعليقاتِه على المسائل البلاغيّة؛ يعلمُ يقينًا أنّ الفَرّاءَ ينظرُ بعينِ النَّحويِّ اللُّغويِّ الّذي يهتمُّ بتأصيلِ الأساليبِ اللُّغويةِ من حذفٍ واستعارةٍ وتشبيهٍ ومجاز وقلب وزيادة وتعريضٍ وتجريد، ويبحثُ عن نظائرِها من فصيحِ كلامِ العرب، وينظرُ إلى هذه الأساليبِ بنظرةٍ معياريّة؛ ليُحدِّدَ بدقّةٍ حُكمَها أجائزةٌ هي أم ممتنعةٌ أم واجبة؟

فمثلًا في أسلوب الحذفِ يُحاولُ أنْ يُقدِّرَ المحذوفَ تقديرًا صحيحًا مُستعينًا بالدّليل والقرائن، بينما يبحثُ البلاغيُّون عن القيمة الجماليّة الّتي أضفاها الحذفُ على النّصّ القرآنيّ، فكأنّ الفرّاءَ كان يسألُ نفسَه سؤالًا: أين موطنُ الحذف؟ وما حُكم هذا الحذف؟ وما تقديرُ المحذوف؟ وما الدّليلُ على هذا الحذف وعلى صحّة تقدير المحذوف؟ بينما كان البلاغيُّون يسألون أنفسَهم: ما الحكمة البلاغيّة والجماليّة التي أرادَها البيانُ القرآنيُّ من وراءِ هذا الحذف؟

(1) انظر: القَزوينيّ، تلخيص المفتاح، ص67.

(2) انظر: الفرّاء، معاني القرآن، 2/379.

فضلًا عن كونِ البلاغيّين يحشدون هذه الأمثلةَ في باب الإيجازِ بالحذفِ مثلًا، بينَما الفرّاءُ -كغيره من نُحاةِ زمانِه- يُعالجُ كلَّ مسألةٍ في سياقِها عندَما يشرحُ السُّورةَ القرآنيّةَ كاملةً، ولا يُفردُ لكلّ مسألةٍ بابًا مُستقلًّا كما فعلَ البلاغيّون، فالفرّاءُ تكلَّمَ كثيرًا على التَّشبيه ولم يُفردْ له بابًا، وتكلَّم كثيرًا عن الكناية ولم يُفردْ لها بابًا؛ لأنّ الهدفَ من كتابه ليس تعليمَ البلاغةِ العربيّة، وإنّما كانَ الهدفُ من كتابِه بيانَ ما قد يستغلقُ على النّاس ويُشكِلُ عليهم من معاني كلمات القرآن الكريم، وجُمَلِه، وأساليبِه، وفي معرضِ بيانِه هذا تعرّضَ لمسائلَ بلاغيّةٍ متعدّدةٍ تلقَّطَها البلاغيّون فيما بعدُ، وخصّصُوا لها المصطلحاتِ المناسبةَ، وحدُّوها بالحدود الدّقيقةِ، ومثّلوا لها بالأمثلة الموضِّحة.

ولا ريبَ في أنَّ كُتُبَ البلاغةِ التّعليميّةَ عند المتأخِّرين؛ كالسّكّاكيّ والقزويني والتّفتازانيّ كانَ لها فائدةٌ عظيمة في تيسير تعليم البلاغة؛ إلّا أنّها حين صنعت أبوابًا مثل (الاستعارة) أو (الإطناب) أو (أحوال المسند إليه) أو (الطِّباق) وجمعَت تحتَها الأمثلةَ والأشباهَ والنّظائرَ؛ وقعْنا في خطأٍ كبير في تدريس البلاغة؛ إذ راعَينا قواعدَ البلاغة وأهمَلْنا رُوحَها. فأصبحَ طالبُ العلم يقرأُ الآيةَ التي فيها الصّنعة البلاغيّة معزولةً عن سياقِها وسباقِها والمقام الذي قيلَت فيه وسبب النُّزولِ والقراءات الأُخرى لبعض كلمات الآية، وهذا يحرمُ المتلقِّيَ من فُرصةِ الفهم العميق للآية ويحرمه من معرفة الغرض البيانيّ من هذه الصَّنعة البلاغيّة؛ لذا فإنّ دراسةَ البلاغة أمتعُ وأنفعُ ما تكونُ في كُتُبِ التّفسيرِ؛ لأنّها تدرسُ بلاغة الآية في سياقِها؛ وليس كجزيرة معزولة؛ كما تفعلُ كُتُبُ المتأخِّرين. كما أنّ دراسة بلاغة الشِّعر أجملُ ما تكونُ في الكُتُب النّقدية البلاغيّة مثل كتاب العُمدة في صِناعة الشِّعر ونَقْدِه لابن رشيق القَيرواني (ت463هـ/1071م)، وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانيّ (ت471هـ/1078م)، والمثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر لابن الأثير (ت637هـ/1239م). ونحن نحتاجُ من الدّارسين في أيّامِنا أن يدرسُوا بلاغة القرآن والحديث والشّعر والنّثر في سياقاتِها، وأن يُحلِّلوها تحليلًا بلاغيًّا ينظرُ إلى الصّرف والنّحو وقواعد البلاغة وإلى الأصوات والموسيقى والخُطوط والمؤثِّرات الثّقافيّة والمعرفيّة والدّينية والتّاريخية في الكلام، ولا قيمةَ إطلاقًا للقول: هنا يوجدُ استعارة مكنيّة، هنا يوجد طباق، وهنا تأكيد المدح بما يشبه الذَّم؛ فهذا كلامٌ يُحسِنُه طالبٌ في المدرسة المتوسِّطة، بل المطلوب من دارس الأدب هو التّحليل العميق والغوص في عاطفةِ النّصّ وخيالِه وأسرارِه وأبعادِه ومراميه ومقاصدِه الواضحة والخفيّة، وباختصارٍ شديد نقولُ: ينبغي للبلاغيّ أن يقرأ ما بين السُّطور.

ولكي يتَّضحَ منهجُ الفَرّاء في معالجة المسائل البلاغيّة سنُوردُ نموذجًا آخرَ من أسلوبِ الحذف؛ ففي قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 73] قال الفرّاءُ: «قولُه: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ﴾ يُقال: إنّه ضُربَ بالفَخِذِ اليُمْنى، وبعضُهم يقولُ: ضُرِب بالذَّنَب. ثُمَّ قال اللّه عزّ وجلّ: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ معناه، والله أعلم: ﴿ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ﴾، فيحيا، ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ

ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أي: اعتبروا، ولا تجحَدوا بالبَعْث. وأضمَرَ (فيحيا)، كما قال: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشُّعراء: 63] والمعنى، والله أعلم: فضرب البحرَ، فانفلق»[1].

فالقزوينيُّ في باب الإيجاز بالحذف، يذكرُ أنواعَ الحذف، فيصلُ إلى حذف أكثرَ من جملة، فيقولُ: «وإمّا أكثرُ من جملةٍ، نحوُ: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ۝٤٥ يُوسُفُ﴾ [يوسف: 45 - 46] أي: إلى يُوسُفَ؛ لِأَسْتَعْبِرَهُ الرُّؤيا، ففعلُوا، وأتاهُ، فقال له: يا يوسفُ»[2].

وقد كان الفرّاء قبلَ قُرونٍ أشارَ إلى هذا الحذفِ؛ إذْ قال: «قولُه: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ۝٣٩ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ﴾ [طه: 39-40] ذَكَرَ المشيَ وحدَه، ولم يَذكُرْ أنّها مشتْ حتّى دخلتْ على آل فرعونَ فدلَّتْهُم على الظِّئْرِ. وهذا في التَّنزيل كثيرٌ؛ مثله قوله: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾ [يوسف: 45-46]، ولم يقُلْ: فأُرْسِلَ، فدَخَلَ، فقالَ: يوسفُ. وهو من كلام العرب: أنْ تجتزئَ بحذفِ كثيرٍ من الكلام وبقليله؛ إذا كانَ المعنى معروفًا»[3].

وفي موضعٍ آخرَ يُفسِّرُ فيه قولَ الله تعالى: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ﴾ [البقرة: 93] قالَ الفرّاءُ: «قوله: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ معناه: سمعْنا قولك، وعَصَينا أمرَك. وقوله: ﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ﴾؛ فإنّه أراد: حُبَّ العِجْلِ، ومثلُ هذا ممّا تحذفُه العربُ كثيراً؛ قال الله: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ﴾ [يوسف:82]، والمعنى: سَلْ أهلَ القريةِ، وأهلَ العِيرِ»[4].

رابعاً: الالتفات.

الالتفاتُ: هو التَّعبيرُ عن معنًى بطريقٍ من الطُّرُق الثّلاثة (التَّكلُّم، والخِطاب، والغَيبة) بعدَ التّعبيرِ عن ذلك المعنى بطريقٍ آخرَ من تلك الطُّرُق الثّلاثة؛ بشرطِ أن يكونَ التّعبيرُ الثّاني على خلافِ ما يقتضيه الظّاهرُ، ويترقَّبُه السّامعُ.

ومن أمثلةِ الالتفات التي ساقَها البلاغيّون قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: 9] فالمتكلِّمون عبَّروا عن الله جلَّ وعلا أوّلًا بطريقِ الخِطاب (إنَّكَ)، يعني: (يا ربَّنا إنّك...) ثُمَّ عبَّروا ثانيةً بطريقِ الغَيبة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ على خلافِ ما يقتضيه منهم ظاهرُ الحال من استمرار الخِطاب؛ كأنْ يُقال: (إنّك لا تُخلِفُ الميعاد)، وهو ما ينتظرُه السّامعُ ويترقَّبُه.

وقسَّموا الالتفاتَ إلى صورٍ متعدِّدة؛ منها:

- من التّكلُّم إلى الخطاب: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يس: 22].
- من التّكلُّم إلى الغَيبة: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾ [الكوثر: 1-2].
- من الخطاب إلى التّكلُّم: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ [هود: 90].

(1) انظر: المرجع نفسه، 1/49.
(2) انظر: القزوينيّ، تلخيص المفتاح، ص67.
(3) انظر: الفرّاء، معاني القرآن، 2/179.
(4) انظر: المرجع نفسه، 1/61.

- من الخطاب إلى الغَيبة: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنبياء: 92-93].
- من الغَيبة إلى التّكلُّم: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: 9].
- من الغَيبة إلى الخِطاب: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: 4-5].

ولعلَّ أوسَعَ دراسةٍ بلاغيّة لأسلوبِ الالتفاتِ هي ما أوردَهُ ابنُ الأثير (ت637هـ/1239م) في كتابه المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، وفيه أشارَ إلى سبب تسميةِ أسلوب الالتفات بهذا الاسم بقولِه: «وحقيقتُه مأخوذةٌ من التفاتِ الإنسانِ عن يمينِه وشِماله، فهو يُقْبِلُ بوجهه تارةً كذا وتارةً كذا. وكذلك يكونُ هذا النّوعُ من الكلام خاصّةً؛ لأنّه يُنْتَقَلُ فيه من صيغةٍ إلى صيغةٍ، كانتقالٍ من خِطابِ حاضرٍ إلى غائبٍ، أو من خطابِ غائبٍ إلى حاضرٍ»[1].

والسَّكّاكيُّ (ت626هـ/1229م) أدخَلَ الالتفاتَ في علم المعاني، وتبعَه في ذلك القزوينيّ وسائرُ شُرّاح التّلخيص، وقد قال السَّكّاكيّ في جماليّة الالتفات: «والعربُ يَستكثرون منه، ويرَون الكلامَ إذا انتقلَ من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ أدْخَلَ في القَبول عند السّامع، وأحسَنَ تطريةً لنشاطِه، وأملأ باستدرار إصغائه. وهم أحرياءُ بذلك؛ أليس قِرى الأضيافِ سَجِيّتَهم، ونَحْرُ العِشار للضَّيف دَأْبَهم وهِجّيراهم -لا مَزَّقَتْ أيدي الأدْوارِ لهم أديمًا، ولا أباحَتْ لهم حَريمًا - أفتراهُم يُحْسِنون قِرى الأشباحِ؛ فيُخالفون فيه بينَ لونٍ ولونٍ، وطَعْمٍ وطعمٍ، ولا يُحْسِنُونَ قِرى الأرواحِ، فلا يُخالفون فيه بينَ أسلوبٍ وأسلوبٍ، وإيرادٍ وإيرادٍ»[2]. فقد اجتهدَ السّكّاكيُّ في إظهار الأثر النّفسيّ الجميل الذي يفعلُه أسلوب الالتفات عندَ المتلقّي.

وأمّا الفرّاءُ فإنّه من أوائلِ مَن نبَّهَ على أسلوبِ الالتفاتِ ولم يُسمِّه، فعلى سبيلِ المثال عندَما توقَّفَ عندَ قولِه تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: 31].

هذه الآيةُ الكريمةُ -كما يدلُّ سِياقُها، وكما ذكَرَ المفسِّرون - تُخاطِبُ اليهودَ؛ وتُوعِدُهم بالخُسران والهلاك، وتدعوهم لأخذِ العبرةِ من أهل بَدْر، كيفَ نصرَهُم الله وهم قِلّةٌ، وقد كان المسلمون يَرَون بعيونِهم جيشَ المشركين الذين بلغَ عددُهم تسعَمئةٍ وخمسين رجُلًا، على حين كان عدد المسلمين ثلاثَمئةٍ وأربعةَ عشَرَ رجُلًا.

فعلَّقَ الفرّاءُ على قراءة الإمام نافع (ت169هـ/785م) بقوله: «ومَنْ قرَأَ: (تَرَوْنَهم) ذَهَبَ إلى اليهودِ؛ لأنّه خاطَبَهم، ومَن قالَ: (يَرَوْنَهُمْ)؛ فَعَلى ذلك [يقصد: تبقى دالّةً على اليهود؛ ولكن عن طريق الالتفات] كما قال: ﴿حَتَّىٰٓ

(1) انظر: ابن الأثير، ضياء الدين (ت637هـ/1239م)، المَثَل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، 2/135.

(2) انظر: السّكّاكيّ، أبو يعقوب، مفتاح العلوم، 1/199.

إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس : 22]، وإنْ شئتَ جعلتَ (يرونهم) للمسلمين دونَ اليهود»[1].

ونستنتجُ من هذا الاقتباس ثلاثة أمور: أوَّلُها هو تنبُّه الفرّاء إلى أسلوب الالتفات دون تسميته، ودون وضعِ حدٍّ أو تعريفٍ واضحٍ له، وثانيها: أنّ الفرّاء كان يشرحُ الأسلوب البلاغيّ في آيةٍ مّا عبر إيراد نظائرِ هذا الأسلوب في آياتٍ أُخَر، وثالثها: براعة الفرّاء في التّوجيه البلاغيّ للقراءات القرآنيّة، وهذا أمرٌ جليٌّ في كلّ كتابه معاني القرآن.

وفي قولِه تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [القيامة : 20-21] «رويت عن عليّ بن أبي طالب، رحمه اللَّه: (بَلْ تُحِبُّونَ)، (وَتَذَرُونَ) بالتّاء، وقرأها كَثِيرٌ: (بل يحبون) بالياء، والقرآن يأتي على أن يخاطب المنزل عليهم أحيانًا، وحينا يُجعلون كالغَيَب؛ كقولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس : 22]»[2]. ويُلحَظُ أنّ الفرّاءَ لم يدرسّ كُلَّ أنواعِ الالتفاتِ التي استقصاها المتأخِّرون، ولم يُبْرِزْ جمالَ الالتفاتِ وبلاغتَه في كلِّ موطنٍ وَرَدَ فيه.

خامِساً: الكِناية

الكِنايةُ فنٌّ راقٍ من فنون القولِ عندَ العربِ، ومَنْ يَخْبُرْ سَنَنَ العربِ في كلامِها وطرائقِ تعبيرها يعلمْ يقينًا ما لأُسلوب الكناية من قيمةٍ جماليّة وبلاغيّة عندَهم. وقد اهتمّ علماءُ العربيّة والمفسِّرون ومُعظَمُ علماء الشّريعة بأسلوب الكنايةِ، واجتهدوا في دراستِه بسبب اتّصاله الوثيق بتفسير القرآن الكريم، وبعلم الفقه، وغير ذلك؛ فوجدنا مُصنّفاتِ أُصول الفقه تهتمُّ بمبحث الكناية، وكذلك مصنّفات علوم القرآن، فضلاً عن مُصنَّفات البلاغة.

وكان للفرّاء -مع تقدُّمه الزّمنيّ- سهمٌ في إضاءة مبحثِ الكنايةِ؛ فقد وردَ مصطلحُ الكناية في كتابِه غيرَ مرّة؛ كقولِه: «...﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة : 235]، يريدُ: النِّكاح. وكما قال: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [النّساء : 43] والغائط: الصّحراء، والمراد من ذلك: أو قضى أحد منكم حاجةً»[3].

ثُمّ جاءَ المفسِّرون الآخَرون والبلاغيُّون فأفادُوا من شرحِه هذا:

- ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًاۚ﴾ [البقرة : 235]
- قال الطّبريّ (ت310هـ/ 923م): «اختلفَ أهلُ التّأويلِ في معنى (السِّرِّ) الذي نهى الله تعالى عبادَه عن مُواعَدَة المعتَدّات به؛ فقال بعضُهم: هو الزِّنا...، وقال آخَرون: بل معنى ذلك لا تأخذوا ميثاقَهُنّ وعُهُودَهن في عِدَدِهنّ ألّا يَنْكِحْنَ غيرَكم؛ كأن يقول: (إني عاشق، وعاهديني ألّا تَتَزَوَّجي غيري) ونحو هذا، وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولا تَنْكِحُوهُنَّ في عِدَّتِهنَّ سِرًّا...،

(1) انظر: الفرّاء، معاني القرآن، 1/195.
(2) انظر: المرجع نفسه، 3/211.
(3) انظر: المرجع نفسه، 3/16.

وأَولى الأقوال بالصّواب في تأويل ذلك تأويلُ مَن قال: (السِّرُّ) في هذا الموضع: الزِّنا [...][1].

- وقال الزَّمخشريُّ (ت538هـ/1144م): «(ولكنْ لا تُواعِدوهُنّ سِرًّا). والسِّرُّ وَقَعَ كنايةً عن النِّكاح الذي هو الوطءُ، لأنّه ممّا يُسَرُّ. وقيل معناه: لا تُواعدوهُنَّ جماعًا، وهو أنْ يقولَ لها: إنْ نَكَحْتُكِ كان كَيْتَ وكيت، يريد ما يجري بينهما تحت اللِّحاف. (إلّا أنْ تقولوا قولًا معروفًا) يعني: من غير رَفَثٍ ولا إفحاش في الكلام. وقيل (لاتواعدوهن سراً): أي في السِّرّ؛ على أنّ المواعدةَ في السِّرِّ عبارةٌ عن المواعدةِ بما يُسْتَهْجَنُ؛ لأنّ مُسَارَّتَهُنَّ في الغالب بما يُسْتَحيا من المجاهَرَةِ به. وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما (إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفاً): هو أن يتواثقا ألّا تتزوّج غيره»[2].

- وقال الرّازيّ (ت606هـ/1210م): «ما مَعْنَى السِّرِّ؟ وَالْجَوَابُ: أَنَّ السِّرَّ ضِدُّ الْجَهْرِ وَالْإِعْلَانِ، فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ السر هاهنا صفة المواعدة على معنى: وَلَا تُوَاعِدُوهُنَّ مُوَاعَدَةً سِرِّيَّةً وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ صِفَةً لِلْمَوْعُودِ بِهِ عَلَى مَعْنَى وَلَا تُوَاعِدُوهُنَّ بِالشَّيْءِ الَّذِي يَكُونُ مَوْصُوفًا بِوَصْفِ كَوْنِهِ سِرًّا، أَمَّا عَلَى التَّقْدِيرِ الْأَوَّلِ وَهُوَ أَظْهَرُ التَّقْدِيرَيْنِ، [...]، وَهَاهُنَا احْتِمَالَاتٌ الْأَوَّلُ: أَنْ يُوَاعِدَهَا فِي السِّرِّ بِالنِّكَاحِ فَيَكُونُ الْمَعْنَى أَنَّ أَوَّلَ الْآيَةِ إِذْنٌ فِي التَّعْرِيضِ بِالْخِطْبَةِ وَآخِرَ الْآيَةِ مَنْعٌ عَنِ التَّصْرِيحِ بِالْخِطْبَةِ الثَّانِي: أَنْ يُوَاعِدَهَا بِذِكْرِ الْجِمَاعِ وَالرَّفَثِ، لِأَنَّ ذِكْرَ ذَلِكَ بَيْنَ الْأَجْنَبِيِّ وَالْأَجْنَبِيَّةِ غَيْرُ جَائِزٍ، قَالَ تَعَالَى لِأَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ [الْأَحْزَاب: 32] أَيْ لَا تَقُلْنَ مِنْ أَمْرِ الرَّفَثِ شَيْئًا فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ [الْأَحْزَاب: 32] الثَّالِثُ: قَالَ الْحَسَنُ: وَلكِنْ لَا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا بِالزِّنَا طَعَنَ الْقَاضِي فِي هَذَا الْوَجْهِ، وَقَالَ: إِنَّ الْمُوَاعَدَةَ مُحَرَّمَةٌ بِالْإِطْلَاقِ فحمل الكلام مَا يُخَصُّ بِهِ الْخَاطِبُ حَالَ الْعِدَّةِ أَوْلَى. وَالْجَوَابُ: [....] فَاللَّهُ تَعَالَى نَهَى عَنْ ذَلِكَ الرَّابِعُ: أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ نَهْيًا عَنْ أَنْ يُسَارَّ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ الْأَجْنَبِيَّةَ، لِأَنَّ ذَلِكَ يُورِثُ نَوْعَ رِيبَةٍ فِيهَا الْخَامِسُ: أَنْ يُعَاهِدَهَا بِأَنْ لَا يَتَزَوَّجَ أَحَدًا سِوَاهَا. أَمَّا إِذَا حَمَلْنَا السِّرَّ عَلَى الْمَوْعُودِ بِهِ فَفِيهِ وُجُوهٌ الْأَوَّلُ: السِّرُّ الْجِمَاعُ...»[3].

أردنا من إيراد هذه الأمثلة من تفسيرات المفسِّرين لهذه الكناية القول بأنّ المفسّرين والبلاغيّين فيما بعدُ أفادُوا ممّا قاله الفرّاءُ مُختصرًا قبل قرونٍ.

الخاتمة:

وختامًا نرى أنّ الفرّاء في كتابه «معاني القرآن» قد فَتَح البابَ أمامَ دراسة البلاغة القرآنيّة، وقد وضَعَ البذورَ الأولى لكثيرٍ من المسائل البلاغيّة، من خلال التَّوقُّف عند المواضع التي فيها أساليبُ بلاغيّةٌ مُشكلةٌ على بعض الأفهام، أو هي مَظِنَّة الإشكال، مثل المجاز أو الكناية أو الحذف أو المشاكلة وغير ذلك ممّا يحتاجُ إلى إيضاح.

(1) انظر: الطَّبريّ (ت310هـ/ 923م)، جامع البيان في تأويل القرآن، ص5/105 وما بعدها.

(2) انظر: الزَّمخشريّ، الكشّاف، 284.

(3) انظر: الرّازيّ، فخر الدّين (606هـ/1210م)، مفاتيح الغيب، 6/471.

وكان الفـرّاءُ يعتنـي بهـذه الأساليب من حيثُ تأصيلُها ونسبتُها إلى العرب القدماء، واستحضارُ نظائرها من القرآن الكريم ومن الحديث الشريف ومـن أشعار العرب، ولم يكـن يعتني بها كثيرًا من حيثُ إظهارُ الجوانب الجماليّة والوظائف البلاغيّة التي حقّقتْها تلك الأساليبُ.

وكان الفرّاءُ يعالجُ المسألةَ البلاغيّةَ كالالتفاتِ مثلاً؛ بـشرح ماهيتها، واستحضار نظائرها، دون أن يـضع لها تعريفًـا مُحدّدًا ومُعيّنًـا، دون تسمية هـذه الفنون البلاغيّـة بالمصطلحات التـي توافَقَ عليها علماءُ البلاغة فيما بعدُ.

وكان الفرّاءُ يُولي القـراءاتِ القرآنيّةَ اهتمامًا كبـيرًا، ويُبينُ أثرَ تعدُّد القـراءات في تعدُّد المعاني والتّفـسيرات للعبارة الواحـدة في القرآن الكريم، وهو يُرجّحُ بين القـراءات بحسَب موافقتِها المعنى القرآنيَّ وقواعـدَ العربيّة، ويُخرّجُ أكثرَها تخريجًا بلاغيًّـا يُـشيرُ إلى سَعَـةِ اطّلاعِه وخبرتِـه بلسان العرب.

بيبليوغرافيا

- القرآن الكريم.
- الجرجـانيّ، عبد القـاهر (ت471هـ/1078م)، أسرار البلاغـة، ط1، تحقيـق الشّيـخ محمـود شاكـر، مطبعة المدنيّ بجدّة، 1991م.
- الأنباريّ، أبو بكر (ت328هـ/940م)، الأضداد، تحقيق: محمّد أبو الفـضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، بيروت – لبنان، 1987م.
- الزِّركْلـيّ، خير الديـن (ت1396هـ/1976م)، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، 2002م.
- السَّمْعانيّ، عبد الكريم (ت562هـ/1167م)، الأنساب، ط1، تحقيـق: عبـد الرحمن بـن يحيى المعلمـي اليماني وغـيره، مجلـس دائرة المعـارف العثمانية، حيـدر آباد، 1962م.
- المدنيّ، ابن معصوم (ت1120هـ1707-م)، أنوار الرّبيع في أنواع البديـع، ط1، تحقيق شاكر هـادي شكر، مطبعة النّعمان، العراق- النَّجف، 1968م.
- القزوينيّ، جلال الدّيـن (ت739هـ/1338م)، الإيضاح في علـوم البلاغـة ط3، علّـق عليه د.محمـد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل -بيروت، بلا تاريخ.
- العمـيرات، سليمان، الإيـهام البلاغيّ (شِعـر أبي تمّام والبحـتريّ أنموذجًا)، أطروحة دكتوراه، جامعة دمشق، 2013م.
- حَبَنَّكَـة الميدانيّ، عبـد الرّحمـن (ت2004م)، البلاغة العربيّـة (أُسُسُها، وعلومها، وفنونـها)، ط4، دار القلم بدمشق، 2013م.
- القزوينيّ، جلال الدّيـن (ت739هـ/1338م)، تلخيص المفتـاح (مطبوع في بداية المطـوَّل) ط2، تحقيق: د. عبد الحميد هنداويّ، دار الكتب العلميّة بيروت، 2007م.
- الفارسيّ، أبـو علـيّ (ت377هـ/987م)، الحُجّة للقُرّاء السّبعـة، ط2، تحقيـق: بـدر الديـن قهوجـي -بـشير جويجابي، دار المأمون للتراث، دمشق، 1993م.
- الحمويّ، ابن حِجّـة (ت837هـ/1433م)، خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال- بيروت، دار البحار-بيروت، 2004م.
- العمـيرات، سليمـان، دُرَرُ الفرائـد المستحسنـة في شرح منظومـة ابـن الشِّحنـة، رسالـة ماجستـير، جامعـة دمشق،2010م.
- العلـويّ، يحيى بن حمـزة (ت745هـ1344-م)، الطِّراز لأسرار البلاغـة وعلـوم حقائـق الإعجـاز، ط1، المكتبة العصريّة- بيروت، 1423م.
- السُّبْكـيّ، بـهـاء الدِّيـن (ت763هـ/1362م)، عـروس الأفـراح في شرح تلخيـص المفتـاح، ط1، تحقيق: د.عبد الحميـد هنـداوي، المكتبـة العصريّة للطّباعـة والنّشر،

بيروت – لبنان، 2003م.

- ابن النّديم (ت438هـ/1047م)، الفِهرِست، ط2، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة بيروت – لبنان، 1997م.
- سيبويه (ت180هـ796-م)، ط3، الكتاب، تحقيق: عبد السَّلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988م.
- الزّمخشريّ (ت538هـ/1144م)، الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، ط1، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعليّ محمّد معوّض، مكتبة العبيكان -الرِّياض، 1998م. وطبعة دار الكتاب العربيّ – بيروت، ط3، 1407هـ.
- ابن الأثير، ضياء الدين (ت637هـ/1239م)، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، تحقيق د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، نهضة مصر للطّباعة والتّوزيع والنّشر بالقاهرة، وهذه الطّبعة فهارسُها مضطربة وغير متوافقة مع ترقيم الصَّفحات، (د.ط.ت).
- التّفتازانيّ، سعد الدّين (ت793هـ/1390م)، المطوَّل، ط2، تحقيق: د. عبد الحميد هنداويّ، دار الكتب العلميّة بيروت، 2007م.
- العبّاسيّ، عبد الرّحيم (ت963هـ/1556م)، معاهد التّنصيص على شواهد التّلخيص، تحقيق الشّيخ محي الدّين عبد الحميد، مطبعة السّعادة - مصر، 1947م.
- الفَرّاء (ت207هـ822-م)، معاني القرآن، ط1، تحقيق: النّجاتي والنّجّار والشّلبيّ، الدّار المصريّة للتّأليف والتّرجمة – مصر.
- الحمويّ، ياقوت (ت626هـ/1229م)، معجم الأدباء، ط1، تحقيق: إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1993م.
- مطلوب، أحمد، معجم المصطلَحات البلاغيّة وتطوّرها، ط2، مكتبة لبنان ناشرون، 2000م.
- الرّازيّ، فخر الدّين (606هـ/1210م)، مفاتيح الغيب، ط3، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، 1420هـ.
- السّكّاكيّ، أبو يعقوب (ت626هـ/1229م)، مفتاح العلوم، ط2، علّق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان، 1987م.
- ابن جعفر، قُدامة (ت337هـ/948م)، نقد النَّثر، (د.ط)، دار الكتب العلميّة -بيروت، 1995م. (وفي أوّل الكتاب بحثٌ للدكتور طه حسين بعنوان: «تمهيد في البيان العربيّ من الجاحظ إلى عبد القاهر» ترجمَه عن الأصل الفرنسيّ عبد الحميد العبّادي).
- ابن خَلِّكان (ت681هـ/1282م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ط1، تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر -بيروت، (تصوير عن طبعة قديمة بتاريخ 1900م).

مقالات:

- بلاغة التشبيه عن مقاصد القرآن الكريم، د. سليمان حسين العميرات، (EKEV AKADEMI DERGISI) السنة:19، العدد:64، 2015م.
- علاقة علم البلاغة بتفسير القرآن الكريم، د. سليمان حسين العميرات، (Sultan Mehmet İlmîAraştırmal arinasanVeToplumBilimleri Dergisi)، السنة:4، العدد: 7، 2016م.
- تعلُّم اللّغة العربيّة وبلاغتها وسيلة لتحصيل علوم الشّريعة، د. سليمان حسين العميرات، (Dinbilim leriAkademikAraştırmaDergisi)، السنة:16، العدد:-16 الجلد:1، 2016م.